﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة: 183]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين وجوب القصاص والوصيّة، وبين وجوب الصّيام:

الصّيام حرمانٌ مشروعٌ وتأديبٌ بالجوع

ذكر الله تعالى في الآيات السّابقة حكم القصاص، ثمّ عقّبه بحكم الوصيّة للوالدين والأقربين، ثمّ بأحكام الصّيام على وجه التّفصيل؛ لأنّ هذا الجزء من السّورة الكريمة، يتناول جانب الأحكام التّشريعيّة ولما كان الصّوم من أهمّ الأركان؛ ذكره الله تعالى هنا، ليهيّئ عباده إلى منازل القدس، ومعارج المتّقين الأبرار"[1]، وقد أجاد الهرريّ في بيان مناسبة هذه الآيات لما قبلها، حيث ذكر: "أنّه تعالى أخبر أوّلًا بكَتْب القصاص، وهو إتلاف النّفوس، وهو من أشقّ التّكاليف، فيجب على القاتل إسلامُ نَفْسِه للقتل، ثمّ أخبر ثانيًا بكتْب الوصيّة، وهو إخراج المال الّذي هو عديل الرّوح، ثمّ انتقل ثالثًا إلى كتْب الصّيام، وهو مُنْهِكٌ للبدن، مُضْعِفٌ له، مانعٌ وقاطعٌ ما أَلِفَهُ الإنسان من الغذاء بالنّهار، فابتدأ بالأشقّ ثمّ بالأشقّ بعده، ثمّ بالشّاق، فهذا انتقالٌ فيما كتبه الله على عباده في هذه الآية، وكان فيما قبل ذلك، قد ذكر أركان الإسلام الثلاثة، الإيمان والصّلاة والزّكاة، فأتى بهذا الرّكن الرّابع، وهو الصّوم"[2].

وقد أوجز القرطبي بيان المناسبة فقال: "لَمَّا ذَكَرَ مَا كُتِبَ عَلَى الْمُكَلَّفِينَ مِنَ الْقِصَاصِ وَالْوَصِيَّةِ؛ ذَكَرَ أَيْضًا أَنَّهُ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الصِّيَامُ، وَأَلْزَمَهُمْ إِيَّاهُ، وَأَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ"[3].

(1) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/107.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/148.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/272، وينظر كذلك: أبو حيّان، البحر المحيط: 2/177.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

شاء الله تعالى أن يجعل الصّيام فريضة لازمة

1) ﴿كُتِبَ﴾: "فُرِضَ"[1]، يُقَالُ: كَتَبْتُ الْكِتَابَ أَكْتُبُهُ كَتْبًا ... ومِنَ الْبَابِ الْكِتَابُ، وَهُوَ الْفَرْضُ، وَيُقَالُ لِلْحُكْمِ: الْكِتَابُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَما لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى»[2]، أَرَادَ بِحُكْمِهِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البيّنة: 2- 3]، أَيْ: أَحْكَامٌ مُسْتَقِيمَةٌ. وَيُقَالُ لِلْقَدَرِ: الْكِتَابُ. قَالَ الْجَعْدِيُّ:

يَا بْنَةَ عَمِّي كِتَابُ اللَّهِ أَخْرَجَنِي *** عَنْكُمْ وَهَلْ أَمْنَعَنَّ اللَّهَ مَا فَعَلَا[3]

وقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ [آل عمران: 181]، أي: نحفظ، بمنزلة المكتوب... والكتابُ: الفَرْضُ والحُكمُ[4].

2) ﴿ٱلصِّيَامُ﴾: "مصدر صام -كالقِيَام-، وأصله في اللّغة: الإمساكُ عن الشّيء والتّركُ له، ومنه: قيل للصّمت: صومٌ؛ لأنّه إمساك عن الكلام، قال الله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: 26]"[5]، وَيُقَال: صَامَ النَّهَار، إذا قَامَ قَائِم الظّهيرة؛ لأَنّ الشَّمْس إذا صَارَت في كبد السَّمَاء وَقت الزَّوَال، وَكَأَنَّهَا تقف عَن السّير، فَيُقَال عِنْد ذَلِك: صَامَ النَّهَار"[6]، ومنه: صَامتِ الخيلُ؛ إذا كفّت عن السّير، ومنه قول نابغة بني ذبيان:

خَيْلٌ صِيَامٌ، وخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ *** تَحْتَ العَجَاجِ، وأُخْرَى تَعْلُكُ اللُّجُمَا[7]

"وَالصَّوْمُ فِي الشَّرْعِ: الْإِمْسَاكُ عَنِ الْمُفْطِرَاتِ مَعَ اقْتِرَانِ النِّيَّةِ بِهِ، مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَتَمَامُهُ وَكَمَالُهُ بِاجْتِنَابِ الْمَحْظُورَاتِ، وَعَدَمِ الْوُقُوعِ فِي الْمُحَرَّمَاتِ"[8].

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 68.
(2) البخاري، حديث رقم: (6633)، ومسلم، حديث رقم: (1697).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 5: 158.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 5: 158.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/554، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/272.
(6) ابن قتيبة: غريب الحديث، : 1/217.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 3/409.
(8) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/273.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

خطاب المؤمنين بفريضة الصّيام، على سبيل الإلزام والالتزام، فهي فريضة مأمورٌ بها في كُلّ الشّرائع السّماويّة

يخاطب الله تعالى المؤمنين بأنّه فُرِضَ عليهم الصّيام كما فُرِضَ على الأمم من قبلهم، فليس الصّيام مختصًّا بالمسلمين، وغاية فريضته أن تتّقوا الله، بأن تجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية بالأعمال الصّالحة، ومن أعظمها الصّيام[1]،" ومن هذا يعلم أنّ الصّيام يبعث على الإيمان الصّادق، ويرقّق القلب، ويصفّي النّفس، ويعين على خشية الله تعالى؛ ولذا استعان به الأنبياءُ في تحقيق مآربهم، والأولياءُ في تهذيب نفوسهم، والخاصّةُ في شفاء قلوبهم، والعامّةُ في شفاء جسومهم"[2].

❁ الإيْضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ فَصْلِ قولِ اللهِ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ﴾ عمَّا قبلُ:

الشّروعُ في بَيَانِ حُكْمٍ جَدِيدٍ؛ هُوَ الصّيامُ

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لما بينَهما من كمالِ الانقطاعِ؛ حيث إنَّ هذه الآيةَ جاءت لتقرير حُكْمٍ جديد[3].

دَلَالَةُ أُسْلوبِ النّداءِ في قولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

النّداءُ أمارةٌ على الاعتناءِ، وتنبيهٌ على مضمُونِ الخِطَاب

في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ نداءٌ للمؤمنين بفرض الصّيام، على شاكلة ندائه لهم بفرض القصاص وفرض القتال دفعًا للاعتداء، والنّداء هنا بالنَّظَرِ إلى ما ذُكِرَ ممَّا فُرض قبلَ ذلك وبعده، وهو "بيانٌ لحكم آخر من الأحكام الشّرعيّة، وتكريرُ النّداء لإظهارِ مزيدِ الاعتناء"[4]، والتّنبيه إلى ما سيلقى من أحكام[5]، " وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى نِدَاءٍ فِي الْمَكْتُوبِ الثَّانِي لِانْسِلَاكِهِ مَعَ الْأَوَّلِ فِي نِظَامٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ: حُضُورُ الْمَوْتِ بِقِصَاصٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَتَبَايَنَ هَذَا

(1) المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/28.
(2) محمد بن الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 33.
(3) محمد سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/253.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/198.
(5) محمّد سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/253.

التَّكْلِيفُ الثَّالِثُ مِنْهَا"[1]، وقد كان الخطاب من الله موجّهًا إلى عباده المؤمنين، بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في آيات شتّى، بلغت ثمانيَة وثمانين موضعًا من القرآن الكريم، "ونداء المخاطبين باسم المؤمنين، يذكّرهم بأنّ الإيمان يقتضي من صاحبه، أن يتلقّى أوامر الله ونواهيه بحسن الطّاعة والامتثال، وإنّما خصّهم بالنّداء؛ لأنّهم هم المستجيبون لأمره، والمنتهون عمّا نهى الله عنه؛ إذ الغالبُ أن يُتْبَعَ هذا النّداء بأمرٍ أو نهيٍ"[2].

نُكْتَةُ العُدُولِ عَنْ (صُومُوا) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾:

المعاني المُخْتَلِفَةُ لِلَفْظِ (كتب) تتناسَبُ دلالةً وتأويلًا مع السّياقات المتنوّعة

الفعلُ (كُتِبَ) في الآية، بمعنى: فُرِضَ، فقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، أي: فُرض، ويأتي (الكَتْبُ) مرادًا به الجَعل، كما في قوله: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: 53]، ويأتي (الكَتْبُ) بمعنى: الأَمْرِ، كما قال: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: 21]، يعني: أمركم الله تعالى أن تدخلوها[3].

وعُدِل عن التَّعبير بـ (صُوموا) إلى التَّعبير بـ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ مع أنَّ الأوَّلَ أخصَرُ؛ لما في الثَّاني من توكيدِ الحكم، والتَّرغيبِ في الفعل، وتطييبِ النّفس[4].

وقد أكّد الله تعالى فرضيَّةَ الصِّيام بقوله: ﴿عَلَيْكُمُ﴾، ورشَّحهُ وقوَّاهُ ببيانِ أنّه شريعة النّبيّين السَّابقينَ؛ ولذا قال سبحانه: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[5].

تَعْظِيمُ اللهِ تَعَالَى بِنِسْبَةِ الكَمَالَاتِ لَهُ، وتَعْظِيمُ قَدْرِ الصِّيام

دلالة بناء الفعلِ لِلْمَفْعُولِ في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾:

وَرَدَ الفعل ﴿كُتِبَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ مبنيًّا للمفعول، أي: مبنيًّا لِما لم يُسمّ فاعله، وهذا البناءُ يكون عادةً في الأحكامِ التي قد تصعُبُ على العبادِ، كما قال أبوحيّان: "وَبِنَاءُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/177.
(2) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/419.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/381.
(4) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/219.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/550.

كُتِبَ لِلْمَفْعُولِ فِي هَذِهِ الْمَكْتُوبَاتِ الثَّلَاثَةِ، وَحَذْفُ الفَاعِلِ لِلْعِلْمِ بِهِ؛ إذ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى؛ لِأَنَّهَا مَشَاقُّ صَعْبَةٌ عَلَى الْمُكَلَّفِ، فَنَاسَبَ أَنْ لَا تُنْسَبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي كَتَبَهَا، وَحِينَ يَكُونُ الْمَكْتُوبُ لِلْمُكَلَّفِ فِيهِ رَاحَةٌ وَاسْتِبْشَارٌ، يُبْنَى الْفِعْلُ لِلْفَاعِلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54]، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: 21]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: 22] وَهَذَا مِنْ لَطِيفِ عِلْمِ الْبَيَانِ"[1]، ففي بناءِ الفعلِ للمفعولِ جريٌ على طريقةِ التَّعظيم لله تعالى، وفيه أيضًا: إيماءٌ إلى تفخيم هذا الرّكن وتشريفه[2]، بخلاف بناءِ فعل (الكَتْب) لِلْفَاعِلِ في نحو قول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: 45]؛ فإنَّه مناسبٌ لاستعصاءِ اليهودِ وشدَّةِ مخالفتِهم لأنبيائهم، بخلاف أمّة الإسلام، ولذا وقعَ التَّفريقُ بين الخطابَيْن؛ لافتراقِ المخاطَبينَ[3].

دلالَةُ تَقْدِيمِ الجارّ والمَجْرُورِ فِي قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾:

الاهْتِمَام بِشَأْنِ الـعِـبَـادِ وإِبْـرَازُ مَنْزِلَةِ الصِّيام

قُدِّمَ الجَارُّ وَالمَجْرُورُ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ، وَإِنْ كَانَ الغالبُ عَكْسَ ذَلِكَ؛ "لِأَنَّ مَا احْتِيجَ فِي تَعَدِّي الْفِعْلِ إِلَيْهِ إِلَى وَاسِطَةٍ، دُونَ مَا تَعَدَّى إِلَيْهِ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ؛ لِأَنَّ الْبَدَاءَةَ بِذِكْرِ الْمَكْتُوبِ عَلَيْهِ أَكْثَرُ من ذِكْرِ المكتوب؛ لتعلّق الكَتْب لمن نُودِيَ، فَتَعْلَمُ نَفْسُهُ أَوَّلًا أَنَّ الْمُنَادَى هُوَ الْمُكَلَّفُ، فَيَرْتَقِبُ بَعْدَ ذَلِكَ لِمَا كُلِّفَ بِهِ"[4]، فيكون تقديمُ الجارِّ والمجرورِ للاهتمامِ بشأنِ المُنادَى وهو العبدُ المكلَّفُ، ليَتنبَّهَ إلى ما يُلْقَى إليه؛ تعظيمًا لشأنِ المأمورِ بِهِ، وليس المرادُ بالتَّقديم ههنا القصرَ؛ لأنَّ دلالة التَّقديم على القصرِ دلالةٌ بالفَحْوَى، وهي معارضَةٌ ههنا بالتَّنصيص على عدمِ اختصاصِ وجوب الصِّيامِ بالمسلمين؛ إذ قال سبحانه: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

دلَالَةُ اللَّامِ فِي (ٱلصِّيَام) من قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾:

الصّيامُ معهودةٌ حقيقتُهُ عند أهل الإسلام

اللَّامُ في ﴿ٱلصِّيَامُ﴾ هي لامُ العهدِ العلميِّ، الذي يُسمِّيه النُّحاةُ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/177.
(2) محمد سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/253.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/177.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/177- 178.

العهدَ الذِّهنيَّ، والمعنى: كُتِبَ عليكم جنسُ الصِّيام المعروف[1]، وهذا المعنى للَّام يصلُحُ إن كانت قد سبقت تعبّداتهم به، ويحتمل أن تكون اللَّامُ للجنس إن كانت لم تسبق.

وبناءُ ﴿ٱلصِّيَامُ﴾ على (فِعَالٍ)، وهو أحد البناءَيْنِ الكثيرين في مصدر هذا النّوع من الفعل، وهو فعل الواويّ العين، الصّحيح الآخر، والبناءان هما: (فُعُول) و(فِعَالٌ)، وعُدِلَ عنِ الفعُول – وإن كان الأصلَ – ؛ لاستثقال الواوين.

ويَحتمل أن تكون اللَّامُ عوضًا عن المضافِ إليه، فقوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ أي: كُتِبَ عليكم صيامُ رمضانَ، فحُذف المضاف إليه وهو (رمضان)، وعُوِّضَ عنه اللَّامُ، قال النّسفيّ: " والمراد صيام شهر رمضان ﴿كَمَا كُتِبَ﴾، أي: كتابة مثل ما كتب، فهو صفة مصدر محذوف ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ على الأنبياء والأمم من لدن آدم عليه السلام إلى عهدكم، فهو عبادة قديمة، والتّشبيه باعتبار أنّ كلّ أحد له صوم أيّام، أي: أنتم متعبّدون بالصّيام في أيّام، كما تعبّد من كان قبلكم"[2].

وهذه المعاني صحيحةٌ في ذاتِهَا، وأظهرهَا الأوَّلُ؛ لأنَّ لفظ ﴿ٱلصِّيَامُ﴾ صار حقيقةً شرعيَّةً، متى أُطلقت في لسانِ الشَّرع انصرفَ الذِّهن إلى تلك الحقيقةِ.

نِكَاتُ التّشبِيهِ فِي قوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾:

التَّسَلِّي بِالتَّأَسِّي بَـاعِـثٌ عَـلَى الْعَمَلِ

التّشبيه في قول الله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ تشبيهٌ مرسَلٌ مجملٌ[3]؛ فهو مرسلٌ لذكر الأداة فيه، مجمَلٌ لحذف وجهِ الشَّبَهِ منه، ونكتةُ إيرادِ التَّشبيه ههنا: تأكيدُ الأمر، وتسليةُ المسلمين بمن قبلهم؛ لأنّ في الصّوم نوعَ صعوبة[4]، "يَعْنِي: هَذِهِ الْعِبَادَةُ كَانَتْ مَكْتُوبَةً وَاجِبَةً عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى عَهْدِكُمْ، مَا أَخْلَى اللهُ أُمَّةً مِنْ إِيجَابِهَا عَلَيْهِمْ، لَا يَفْرِضُهَا عَلَيْكُمْ وَحْدَكُمْ، وَفَائِدَةُ هَذَا الْكَلَامِ: أَنَّ الصَّوْمَ عِبَادَةٌ شَاقَّةٌ، وَالشَّيْءُ الشَّاقُّ إِذَا عَمَّ؛ سَهُلَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/155.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/158.
(3) 9 الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/175.
(4) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 1/77.

تحمُّله"[1]، وهذا التَّسلِّي بمن كان قبل المسلمين قائمٌ على التّأسّي، والمعنى: لا ينبغي أن تشُقّ شرْعيّة الصّوم عليكم؛ لأنّكم لستم مَخْصُوصين بهَا؛ إذ إنَّها سنّة الأنبياء السّالفة والأمم الماضية[2]، وذلك لأنَّه إذَا ذُكِرَ كونُ الصَّوْم مَفْرُوضًا عَلَى مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأُمَمِ؛ سَهُلَتْ هَذِهِ الْعِبَادَةُ"[3]، وفي مثل هذا المعنى قالت الخنساء:

فَلَوْلَا كَثْرَةُ البَاكِينَ حَوْلِي *** عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ *** أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسّي[4]

وقد استقصى ابن عاشورٍ أغراضَ هذا التّشبيه، فذكر أنَّه متضمِّنٌ لثلاثة أغراضٍ؛ هي:

اطِّـرَادُ صَـلاحِ الصِّيامِ ووَفْـرَةُ ثَوَابِه

الأوّل: الاهْتِمَامُ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ، وَالتَّنْوِيهُ بِهَا؛ لِأَنَّهَا شَرَعَهَا اللَّهُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، لِمَنْ كَانُوا قَبْلَ الْمُسْلِمِينَ، وَشَرَعَهَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي اطِّرَادَ صَلَاحِهَا، وَوَفْرَةَ ثَوَابِهَا، وَإِنْهَاضَ هِمَمِ الْمُسْلِمِينَ لِتَلَقِّي هَذِهِ الْعِبَادَةِ، كي لَا يَتَمَيَّزَ بِهَا مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ.

الاقْـتِـدَاءُ بِالآخَرِينَ أُسْوَةٌ فِي الصِّعَابِ

الثَّاني: أَنَّ فِي التَّشْبِيهِ بِالسَّابِقِينَ تَهْوِينًا عَلَى الْمُكَلَّفِينَ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ أن يَسْتَثْقِلُوا هَذَا الصَّوْمَ، فَإِنَّ فِي الِاقْتِدَاءِ بِالآخَرِينَ أُسْوَةً فِي الْمَصَاعِبِ، فَهَذِهِ فَائِدَةٌ لِمَنْ قَدْ يَسْتَعْظِمُ الصَّوْمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَيَمْنَعُهُ ذلك مِنَ الْإِيمَانِ، وَلِمَنْ يَسْتَثْقِلُهُ مِنْ قَرِيبِي الْعَهْدِ بِالْإِسْلَامِ، وَقَدْ أَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَى الضِّمْنِيَّ قَوْلُهُ بَعْدَهُ: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾.

إثَـارَةُ الـعَـزائِمِ واسْـتِـنْـهَـاضُـهَـا لِـلْـمُـسَـارَعَـةِ فِي الـخَـيْـرَاتِ والمُسَابَقَةِ فِيهَا

الثَّالِثُ: إِثَارَةُ الْعَزَائِمِ لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْفَرِيضَةِ، حَتَّى لَا يَكُونُوا مُقَصِّرِينَ فِي قَبُولِ هَذَا الْفَرْضِ؛ بَلْ لِيَأْخُذُوهُ بِقُوَّةٍ تَفُوقُ مَا أَدَّى بِهِ الْأُمَمُ السَّابِقَةُ[5].

(1) الفخر الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/23.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 3/227.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/179.
(4) ديوان الخنساء، ص: 72، والمبرّد، الكامل في اللّغة والأدب: 1/16.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/156-157.

تَعْيِيْن وَجْهِ الشَّبهِ في قولِهِ: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾:

كـمَـالُ فَـرْضِـيّـةِ الصّـومِ وعَـظِـيمُ شَـرَفِـهِ، وَلِـهَـذَا شَـــرَعَـــهُ الـلـهُ تعَالَى لِكُلِّ الْأُمَمِ

التَّشبيه في قوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ مرسَلٌ مجمَلٌ كما تقدَّمَ، وكونُهُ مجملًا يقتضي طَيَّ وجه الشَّبَهِ، وحقيقتُهُ: التّشبيه في الفرضيّة، لا الكيفيّة[1]، فالتَّشبيهُ وَاقِعٌ عَلَى أصلِ مشروعيَّةِ الصَّومِ لَا عَلَى صفتِهِ وَلَا عَلَى عِدَّتِه، فقد يختَلِفُ الصِّيَامَانِ بِالزِّيَادَةِ والنَّقْصِ[2]، فقد تعبَّدنا اللّه تعالى بالصّيام كما تعبّد الذين مِنْ قبلنا من الأمم وأهل الكتابين[3]، إلَّا أنَّ "في صِيَامِ الْإِسْلَامِ مَا يُخَالِفُ صِيَامَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فِي قُيُودِ مَاهِيَّةِ الصِّيَامِ وَكَيْفِيَّتِهَا، وَلَمْ يَكُنْ صِيَامُنَا مُمَاثِلًا لِصِيَامِهِمْ تَمَامَ الْمُمَاثَلَةِ ... وَالتَّشْبِيهُ يُكْتَفَى فِيهِ بِبَعْضِ وُجُوهِ الْمُشَابَهَةِ، وَهُوَ وَجْهُ الشَّبَهِ الْمُرَادُ فِي الْقَصْدِ"[4]، وفيه إثباتُ أنّ الصّومَ شريعةٌ في الشّرائع السّماوية كلّها، وهذا يدلّ على كمال فرضيّته، وعظيم شرَفِهِ، وأنَّه غيرُ مختصٍّ بأهل الإسلام وحدهم، بل يعمّ الشَّرائعَ كلّها[5].

بيانُ وَجْهِ شَبَهٍ آخَرَ فِي قولِهِ تعَالَى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾:

ويَحتَمِلُ أن يكون التَّشبيهُ واقعًا على الوقتِ؛ فإنَّ (مَا) اسم موصولٌ في مَوْضِعِ جَرٍّ، وَصِلَتُهَا: ﴿كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، والضَّميرُ في ﴿كُتِبَ﴾ راجعٌ إلَى (مَا)[6]، وقوله: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾، يُراد به: الأنبياء وأمَمُهم من لدن آدم عليه السلام، وفيه توكيدٌ لِحُكْمِ الصَّوْمِ وترغيبٌ في الفعل وتطييب لِلنَّفس -كما تقدَّمَ-[7]، ولـمَّا كانت (مَا) اسمًا موصولًا، وفيه ضَرْبٌ من الإبهام، احتيجَ إلى تفسيرِهِ وبيانِهِ، ومن جُملة ما فُسِّر بِهِ أنَّه الوقتُ، كما قال مكّي بن أبي طالب: "واختار الطّبريّ قول من قال: إنّه فرض على من كان قبلنا من أهل

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/175.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/275.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/557.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/156.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/551.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/274.
(7) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/123.

الكتاب، صوم شهر رمضان، ففرضه علينا، وقال: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، واستدلّ على ذلك أنّ مَنْ بعدَ إبراهيم عليه السلام مِنَ الأنبياء، كانوا مأمورين بالاتّباع له؛ وذلك أنَّ الله تعالى جعله لِلنَّاسِ إِمَامًا، وأخبرنا أنّ دينه كان الحنيفيَّة المسلمة، وأَمَرَ نبيَّنا ﷺ باتّباعه، فدلّ على أنّ إبراهيم ﷺ ومن كان بعده مِنَ الأنبياء صلواتُ الله عليهم، فُرِض عليهم صومُ شهرِ رمضان، كما فرضه الله تعالى علينا الآن، فوقع التّشبيه على الوقت[1].

وسواءٌ أكان وجهُ الشَّبه هو الفرضيَّةَ أم الوقتَ؛ فإنَّ التَّسلِّي بالتَّأسِّي قائمٌ على كلا الاحتمالَيْن، وهو المرادُ من سياقِ الآيةِ بصرفِ النَّظرِ عن تعيينِ الوَجْه.

نُكْتَةُ تكرَارِ الْفِعْلِ ﴿كُتِبَ﴾ فِي قولِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾:

الإيـذَانُ بِشَـرَفِ الصّيامِ وعَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ

تكرّرُ الفعلِ ﴿كُتِبَ﴾ للإِشْعَارِ بِشَرَفِ الصّيام[2]؛ ولأنّ تشريعَ الصِّيامِ بإنزال الوحي حاصلٌ على الأنبياءِ السّابقين وعلى النّبيّ الخاتم ﷺ، فكان الأوّل في غابره، وكان الثّاني في آخره، فلا غرو أن يتكرّر الفعل؛ لتبيّان أهميّة الفرضِ لِما كان، ولما هو كائن، وهو لطيفٌ في بابه.

دِلَالَةُ حَرْفِ الرَّجَاءِ (لَعَلَّ) فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

الـصَّـوْمُ عِـبَـادةٌ عَظِيمَةٌ يَنْدَرِجُ بِهَا أَصْحَابُها في زُمْرَةِ المُتَّقِين

(لعلّ) في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ دالَّةٌ على ترجّي العباد، والمعنى: أنّه ينبغي لكم بسبَبِ الصّوم أن يقوى رَجاؤكم في التّقوى؛ لتُحصِّلُوهَا[3]، فهو "بَيَانٌ لِحِكْمَةِ الصِّيَامِ، وَمَا لِأَجْلِهِ شُرِعَ، فَهُوَ فِي قُوَّةِ الْمَفْعُولِ لأَجله لـ ﴿كُتِبَ﴾"[4]، فـ (لَعَلَّ) من قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ

(1) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/586.
(2) محمّد سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/253.
(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/252، والواحدي، التّفسير البسيط: 3/559.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/158.

﴿تَتَّقُونَ﴾ تَرَجٍّ في حَقِّ العبَادِ[1]، ووجهُ هذا التَّرجِّي: مَا في الصَّوم من الوُصْلَةِ إلى التَّقوى؛ لِما فيه من قهر النَّفسِ، وكسر الشَّهوات، التي بسببهَا يندرِجُ العبادُ في زمرة المتّقين؛ إذْ كَان الصّوم شعارَهم[2].

بَيَانُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

بِالصّيام يترقّى المُسْلِمُ مِن الدّركات الهَاوِيةِ إلَى المَقَامَاتِ العَالِيَةِ

المعاصي قسمَان: قسم ينجعُ في تركه التّفكرُ، وتفيد في الإقلاع عنه الموعظة، وقسم يصعب تركه بمجرّد التّفكّر، فكان الصّيام خيرَ دواء لاتّقائه، قال ابن عاشور: "و(لعلّ) إمّا مستعارة لمعنى (كَي) استعارة تبعيّة، وإمّا تمثيليّة بتشبيهِ شأن الله في إرادته من تشريع الصّوم التّقوى؛ بحال المترجّي من غيره فعلًا ما، والتّقوى الشّرعيّة هي اتّقاء المعاصي... فجَعَلَ الصّيامَ وسيلةً لاتّقائها؛ لأنّه يُعَدِّل القوى الطبيعيّةَ الّتي هي داعية تلك المعاصي، ليرتقي المسلمُ به عن حضيض الانغماس في المادّة إلى أوج العالم الرّوحانيّ، فهو وسيلة للارتياض بالصّفات الملكيّة والانتفاض من غبار الكدرات الحيوانيّة"[3]، والأوَّلُ أقوَى؛ لما في الثَّاني من دَعوى تشبيه الكامل بالنَّاقِص، والأدَبُ يقتضِي تجنُّبَهُ، ولا سيّما في حقِّ الله تعالَى.

سَبَبُ فَصْلِ جُمْلَةِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عَمَّا قَبْلَهَا:

تَحْصِيلُ التَّقْوَى أَبْـــرَزُ حِـكَـمِ الصِّيَامِ

قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ جملةٌ مسوقةٌ مساقَ التَّعليلِ؛ لِما دلَّت عليه (لعلَّ) من معنَى (كَيْ) - كما تقدَّم -، ولفَصْلِ الجملةِ عمَّا قبلَهَا؛ لوُقوعِهَا استئنافًا بيانيًّا، فلمَّا بيَّن الله سبحانه وجوب الصّيام في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، كأنَّ ذلك أثارَ لدَى المتلقِّي لهذا الخطاب سؤالًا؛ وحاصلُه: ما الحكمة من هذا التَّشريعِ؟، فجاء الجواب: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/275.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/241، وكذلك ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 3/254.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/158.

نِكَاتُ حَذْفِ مَفْعُولِ ﴿تَتَّقُونَ﴾:

تَـنَـوُّعُ دِلَالَاتِ الْحَذْفِ وَتَكَامُلُهَا

مفعولُ ﴿تَتَّقُونَ﴾ محذوف، والتّقدير: تتّقون المعاصيَ، والأفعالَ المحرّمة في الصّيام؛ فإنّ الصّوم يكسر الشّهوة الّتي هي مبدؤها[1]، أو تتّقون ما حرّم عليكم في الصّيام، مِن أَكْلِ الطّعام، وشُرْب الشّراب، ووَطْء النّساء[2]، وفي هذا الوجهِ تعليقُ الفعلِ بمفعولٍ به خاصٍّ.

ويحتمِلُ أن لا يُقدَّر له مفعولٌ به خاصٌّ، والمرادُ من ذلك العمومُ والشُّمول، والمعنى: لعلَّكم تتَّقونَ جميع ما أنتُم مأمورون شرعًا باتِّقائِه، وهذا الوجهُ أعمُّ من الأوَّلِ؛ لاندراجِ الأوَّلِ فيه كما هو ظاهرٌ.

وثَمَّ وجه ثالثٌ، وهو أن لا يُقدَّر مفعولٌ به أصلًا؛ تنزيلًا للفعل المتعدِّي منزلةَ الفعلِ اللَّازم، فمعنى ﴿تَتَّقُونَ﴾: تحصُل لكم التَّقوَى.

ولا تعارُضَ بين هذه المعاني؛ لاندراجِ الأوَّل في الثَّاني، ولأنَّ التَّقوَى إذا تحقَّق بها العبدُ - كما يدلُّ عليه الوجه الثَّالثُ - حملَهُ ذلك على اتِّقاءِ جميعِ ما أُمرَ باتِّقائِه شرعًا.

دِلَالَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَتَّقُونَ﴾:

بـالـصّـوم تـتـربّـى الـنّـفْـس الـبـشـريّـة، وتـصـفـو مِـنَ الأكْدَارِ

في قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ مجاز مرسلٌ، باعتبار ما يؤول إليه، أي: كُتِبَ عليكم الصّيامُ، لأجلِ أن تصيروا متّقين، ببركة المحافظة عليه وتعظيمه؛ إذ إنّ تعظيم شعائر الله تعالى له من التَّأثير في النّفوسِ الشَّيءُ العظيمُ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحجّ: 32][3]، فَالصّومُ سببٌ يؤُولُ بصاحبه إلى تقوى الله تعالى؛ لما فيه من قهرِ النّفس، وكسر الشّهوة، وإذهاب الأشر[4].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/123.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/236.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 3/226.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/237.

دِلَالَةُ الكِنَايَةِ الإيمَائيّة في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ؛ مَدْحًا أَوْ ذَمًّا

في قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ كناية إيمائيّة[1]، وتقريرها: أنّ الصّوم لمَّا كان عبادة قديمة، ودرج عليها الأنبياء وأُمَمُهم من آدم عليه السلام إلى عهدكم؛ أفادَ أنَّه مِن شعار المتَّقين، ومن اقتفى أثرهم، ويوشك أن لا يُعدم المقتدِي من بركتهم، فيُعدَّ منهم، وينتظم في زمرتهم، وإنّما كانت كِنَايَةً إيمائيَّة؛ لأنّ الله تعالى سمّاهم متّقين؛ لكونِهم اكتسبوا لباسَ أهل التَّقوَى، وتزيَّوا بزيِّهم، ومن تزيَّا بزيِّ قومٍ؛ فهو منهم[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجميّةُ:

الصّيام والصّوم:

الفرق بين الصّيام والصّوم مذكور عند اللّغويين، ذلك بأنّ الصّيام هو الكفّ عن المفطرات مع النّيّة، والصّوم: هو الكفّ عن المفطرات والكلام، كما كان في الشّرائع السّابقة[3].

(1) الكناية الإيمائيّة: "إيضاحها ما أشار إليه في الانتصاف بقوله: إنّ العرب تعبرّ عن المعنى، بما يؤدّي عكس مقصوده كثيًرا، كقوله تعالى: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: 5]، وقد اختلف توجيه علماء البيان لذلك: فمنهم من وجهّه بما ذكره الزّمخشريّ، من التّنبيه بالأدنى على الأعلى، ومنهم من وجّهه، بأنّ المقصود في ذلك الإيذان بأنّ المعنى قد بلغ الغاية، حتّى كاد أن يرجع إلى الضّدّ، وذلك شأن كلّ ما بلغ نهايته، أن يعود إلى عكسه" ينظر: حاشيةُ الشّهاب على تفسير البيضاوي: 5/281.

(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 3/227.

(3) أبو هلال العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة: 1/325.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث، سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 3 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-54-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 3 : سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-54-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1789539 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»